الجغرافيا عين التاريخ المبصرة في بلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط ق 03/05هـ ـ 09/11م

Geography is the eye of the visible history in the countries of the Islamic Maghreb during the medieval period 05/03 AH - 11/09 AD

أسامة الطيب جعيل

تاريخ الاستلام: 2018/10/29 تاريخ قبول النشر: 2018/11/22 تاريخ النشر: 2018/12/31

ملخص: عرفت كتب الرحلة والجغرافيا عصر ازدهار كبير خاصة في القرن الرابع الهجري مع ظهور مؤلفات عديدة اختصت بكتابة تاريخ المناطق وعُرفت هذه المؤلفات باسم كتب المسالك والممالك وغيرها، فهذه الأخيرة حفظت التاريخ المحلي لكل المناطق والبقاع خاصة بلاد المغرب الإسلامي التي كانت مقصدا للعديد من الرحالة والجغرافيين المسلمين، فحفلت هذه الكتب بتعريف للمنطقة ووصف الطرق الرئيسية والثانوية الرابطة بين مدنها والمناطق المجاورة، ورصدا لتاريخ وحياة المجتمع والحالة الإقتصادية والمذهبية لسكان المنطقة.

الكلمات المفتاحية: الجغرافيا، الرحلة، بلاد المغرب، الطرق، الحركة التجارية.

Abstract:

The Books of the voyage and geography was known as a period of great prosperity especially in the fourth century Hijri with the appearance of numerous writings specialized in writing the history of the regions and these writings were known as books of the Paths and kingdoms and others, the latter preserved the local history of all regions especially the Islamic Maghreb, which was the destination For many Muslim travellers and geography, these books were written in a definition of the region, describing the main and secondary roads that link their cities and neighboring regions, and monitoring the history and life of the society and the economic and sectarian situation of the region's inhabitants.

Keywords: geography, trade, journey, Meghred land, paths.

مفهوم الرحلة:

1-لغة: لقد عُنِيَتْ مادة (رحل) بشرحٍ وافٍ في مختلف المعاجم العربية، فجاء ذكرها في المعجم الوسيط : "رحل عن المكان رحْلا وترحيلا وترحالا، ورحلة: سار ومضى، والرحالة: كثير الرحلة، والرِحلة جمعها "رِحل"، وفي التنزيل العزيز:- رحلة الشتاء والصيف- ، وكتاب يصف فيه الرحالة مارأى" (الزيات، ح . 2004 :-354 355)، أما في لسان العرب: "الترحيل والرِحال بمعنى الإشخاص والإزعاج، يقال: رحل الرجل إذا سار، وأرحلته أنا ، ورجل رحول وقوم رحل: أي يرتحلون كثيرا، ورجل رَحّال: عالم بذلك مجيد له ..." (إبن منظور، م.دت: 1609/3) فالرحلة هنا بمعنى السير.

وورد لفظ الرحلة في موضع آخر من الكتاب بمعنى الانتقال من مكان إلى آخر: "والترحل والارتحال: الانتقال وهو الرِحلة والرَحْلة، والرِحلة اسم الارتحال إلى المسير..." (إبن منظور، م. د ت: 1609/3). ومن المعاني الأخرى للرحلة والتي وردت في كتاب لسان العرب، جاءت بمعنى الوجهة و المقصد: "والرحلة بالضم بالوجه الذي تأخذ فيه وتريده". (ابن منظور، م. د ت:1609/3).

ومما تقدم نلحظ أن لفظ الرحلة يطلق على عدة معاني، فجاء بمعنى السير والانتقال والوجهة والمقصد الذي يراد الوصول إليه،

ومنه أخذ لفظ رحّال: "وهو الشخص المتنقل من مكان إلى إلى آخر" (عواطف، م. 1996: 40). إذا فمشتقات مادة "رحل" كثيرة ومتعددة تدل كلها على الحركة، لأن الرحلة في الحقيقة ما هي إلا "حركة وانتقال" (الموافي، ن. 1995: 23) ، تبعث في الإنسان الحيوية و النشاط وتعود عليه بمنافع عدة في مختلف مجالات حياته ، على عكس السكون الذي يبعث في صاحبه الجمود والخمول.

2-اصطلاحا:

تتعدد مفاهيم الرحلة اصطلاحا ، إلا أنها تسير في معنى عام واحد ، فيعرفها بطرس البستاني : " انتقال واحد – أوجماعة – من مكان إلى مكان آخر لمقاصد مختلفة و أسباب متعددة " (البستاني ، ب. 1884: 564/08)،لأن الرحلة لا تكون من غير سبب ويجب أن يكون لها دافع.

بينما نجد تعريفها عند صلاح الدين الشامي :" إن الرحلة تظل إنجازا أو فعلا أو مباشرة لما يعنيه أو يقتضيه أمر اختراق حاجز المسافة ، أو إسقاط الفاصل الحاجز بين المكان الذي تبدأ منه أو المكان الذي ينتهي إليه ." (الشامي، ص.1999: 11). في حين يرى أبو حامد الغزالي بأنها " نوع مخالطة مع زيادة تعب و مشقة" (الغزالي، أ.1986: 273)، جاعلا الرحلة عبارة عن احتكاك بالآخر بعد الجهد والتعب الناتجان من الانتقال على الرغم من أنه لم يذكر ذلك.

والمعنى اللغوي والاصطلاحي للرحلة يشتركان في معنى واحد وهو –الحركة– ، وهذه الحركة يحقق منها الإنسان فوائد متعددة، ونجد إشارة إلى هذا المعنى عند المسعودي : "ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمي إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه، وإنارة كل نفيس من مكمنه" (المسعودي، ح. 1989: 03/1).

ب– مفهوم الجغرافيا عند العرب:

لم يستعمل العرب لفظ جغرافية(بضم الجيم أو فتحها) للدلالة على ذلك العلم في القرن الثاني هجري / التاسع ميلادي ، أما قبل ذلك كان لفظها مقصورا على جغرافية بطليموس ، فإذا قالوا الجغرافية فالمراد بذلك الكتاب وحده ، وأول من استعمل اللفظ للدلالة على العلم هو المسعودي في كتابه " التنبيه و الإشراق " ، فقد قال : " الجغرافية هي قطع الأرض"، و المراد بالقطع هو الوصف، ووردت لفظة علم الجغرافية لأول مرة في رسائل إخوان الصفا و فسروها بأنها صورة الأرض (زيدان ، ج. 2012: 116/03-117) .

أما عن الجغرافية وتاريخ ظهورها فقد كان ظهورها مع بدأ الحضارات القديمة ولكنها اقتصرت في بادئ الأمر على وصف أجزاء من سطح الأرض أو تفسير وجود الأرض على أساس التخمينات والمبالغات والتخيلات، وتدخل فيها بعض المعتقدات الشعبية والأساطير المتوارثة مثل البابليين والمصريين القدامى والهنود، ثم جاء الإغريق فوضعوا علما لوصف الأرض (الصقار، ف. 1984: 09).

واستخدم العرب عدة اصطلاحات للدلالة على العلوم الجغرافية منها:

علم الأطوال والعروض، علم تقويم البلدان، علم المسالك والممالك، علم عجائب البلدان، صورة الأرض، صورة الأقاليم، علم البرود (جمع بريد)، علم البلدان، علم الأطوال والأعراض، علم الهيئة، (جغرافيا فلكية).(حمدين ، م.1999: 17).

ج – دوافع الرحلة:

إذا حاولنا الإطلاع على دوافع الرحلة نجدها كثيرة و متنوعة ، فلكل رحالة دافع حفزه للقيام برحلته و الذي يختلف عن دافع رحالة آخر، ومن دوافع الرحلة:

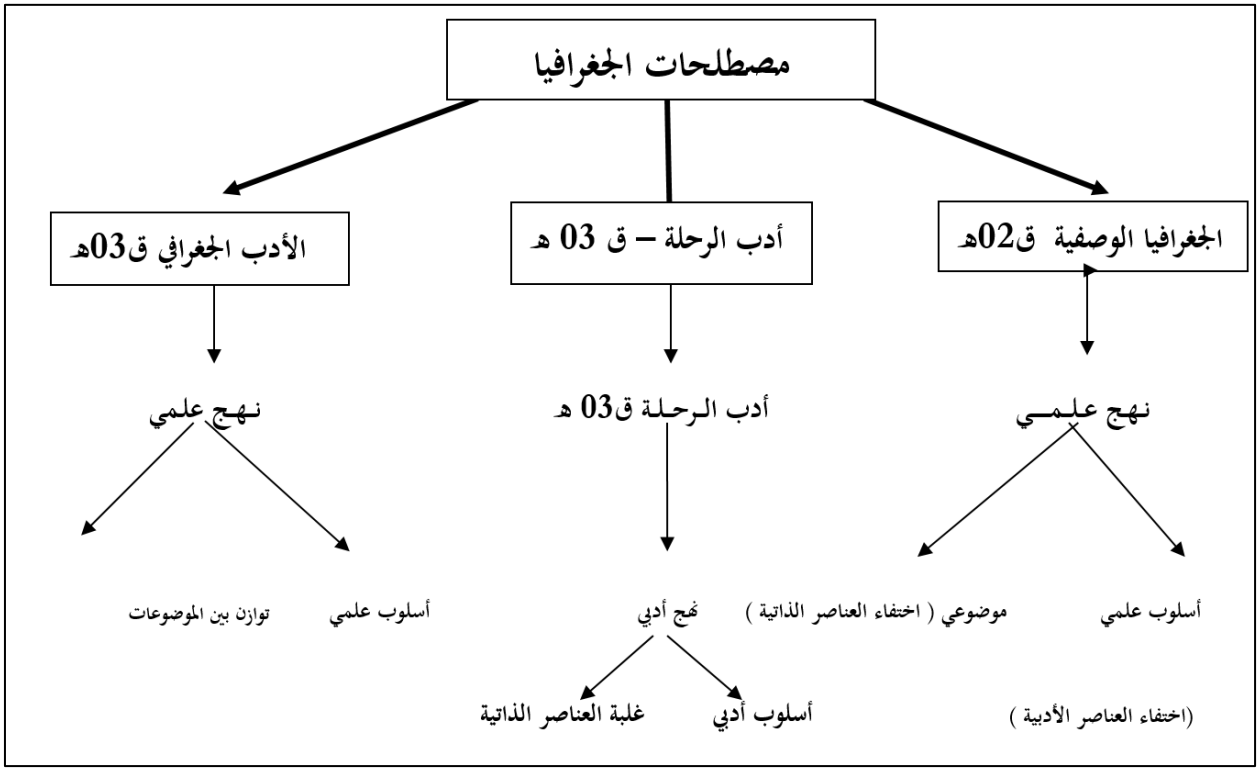

1–الضرورة:

تعد الضرورة واحدة من الدوافع الحتمية للرحلة و التي تدفع الرحالة للتنقل و الارتحال ، مثل الخروج بحثا عن الكلأ و الماء ، أو هربا من مصيبة كظلم حاكم ، أو هربا من النزاعات المحلية و الظروف الاجتماعية القاسية ، فكانت الرحلة إحدى الطرق التي لجأ إليها الإنسان إنقاذا لنفسه (الشوابكة ، ن.2008: 21).

ومن الرحالة الذين دفعتهم الضرورة إلى الإرتحال نجد "ابن عربي" الذي عرف برحلته الضائعة " ترتيب الرحلة" ،إلا أن كتابه "قانون التأويل" صور لنا رحلته و يذكر دوافع رحلته في مواضع عدة من الكتاب : "فدعت الضرورة إلى الرحلة فخرجنا والأعداء يشمتون بنا" (ابن العربي ،م.1990: 75) ، إلى غير ذلك من العبارات الدالة على أن الرحلة كانت ضرورة حتمية.

2–الدافع الديني:

يعد العامل الديني أهم عامل يدفع الرحالة إلى الارتحال، فهو ينتقل إلى المشرق الإسلامي لأداء مناسك الحج، ولأن الحج فريضة على كل مسلم قادر ماليا وبدنيا كان أحد أهم الأشياء التي ربطت المشرق بالمغرب وعملت على توحيد الثقافة في سائر أنحاء البلاد الإسلامية بالرغم من المسافات الطويلة. (الشوابكة ، ن.2008: 27).

ودون بعض الحجاج الواسعين الثقافة " مشاهداتهم بعد عودتهم من الحج لينتفع بتجاربهم سائر المسلمين ، بعدها زخرت كتبهم بأحوال سكان البلاد وطبيعة مزاجهم و أسس اقتصادياتهم وينابيع ثروتهم و رخائهم " (حسني، ح. 1983: 36)، ومن بين هؤلاء الرحالة نذكر على سبيل المثال لا على سبيل الحصر: إبن جبير [1] ، ابن بطوطة [2] ، العبدري [3] وغيرهم .

3-الدافع العلمي:

كانت الرحلة إحدى السبل التي لجأ إليها الرحالة بغية طلب العلم و ملاقاة العلماء و الفقهاء و محاورتهم والاستفادة منهم،

"وهنا كبعض من العلوم الإسلامية ما يرتبط بالرحلة ارتباطا عضويا لا انفصام له مثل الجغرافيا و لذلك نجد الجغرافيين المسلمين من الرحالة" (نصار، ح. 1991: 32)، لذلك كان الرحالة يقطع المسافات من أجل معرفة معلومة أو محاورة عالم، فنجد هنا مقولة لابن خلدون: "الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم، والسبب في ذلك أن البشريأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلونه به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة". (إبن خلدون، ع.2000: 01/ 539-540).

4-الدافع الاقتصادي:

كان من بين أهداف الرحلة القيام بعملية التجارة سعيا لطلب الرزق بحكم الموقع الإستراتيجي للوطن العربي الذي كان يتوسط قارات العالم القديم و كان مركزا لالتقاء الطرق التجارية بين هذه القارات ، فالتجارة كانت من أهم الدوافع التي دفعت الرحالة إلى تدوين رحلته حتى يعين القارئ على معرفة الطرق التجارية البرية و البحرية ، ولعل أول ما ارتبطت به الرحلات علم تقويم البلدان و المسالك و الممالك لوصف الطرق والمناخ و العديد من الأمور الأخرى وذلك لمعرفة الطرق من وإلى مكة للقيام بفريضة الحج وتسهيل عملية التجارة بين مختلف البلدان و البقاع. (الشوابكة ، ن.2008: 46-47).

5-الرحلة الإدارية أو السياسية:

وتسمى كذلك رحلة السفارة وهي رحلة رسمية يقوم بها الرحالة بطلب من الحاكم لقضاء حاجة قد تتعلق بشأن البلاد، كما قد تخص الحاكم نفسه، بل إن هذا النوع من الرحلات قد يكون بهدف التجسس والاستطلاع كرحلة سلام الترجمان 227هـ/841م، والتي كانت بتكليف من الخليفة الواثق بالله قصد معرفة حقيقة سد الصين الكبير الذي يقال أن لإسكندر بناه بين العالم القديم وديار يأجوج ومأجوج (ضيف، ش. 1987: 09)، فالرحلة الإدارية فرضتها ظروف البلاد إذ اقتضت ضرورة الحكم والإدارة وتقدير الثروات وحجم الضرائب أن يكلف الحكام بعض الأشخاص بالقيام برحلات تفقدية لجمع البيانات و الحقائق و تقديم التقارير، وسواء أطلق على النشاط صفة الجغرافيا الإدارية أو كتابة تواريخ الأقاليم، فقد لعبت الرحلات دورا هاما في أدائها (فهيم، ح. 1989: 89).

د – أنواع الرحلة:

أما فيما يتعلق بنوع الرحلة، فإنها تتحدد من خلال الدافع في حد ذاته فإذا كان الدافع دينيا كانت الرحلة دينية، وإذا كانت بهدف طلب العلم كانت الرحلة علمية ،و هكذا تتباين أنواع الرحلة بتباين دوافعها. لكن الدارسين اختلفوا في تصنيفها فنجد مثلا أن صلاح الدين الشامي حصرها في ستة أنواع : رحلة تجارة ، رحلة الحرب، رحلة السفار، وهذه الرحلات ظهرت قبل الإسلام، أما الرحلات الثلاث الأخرى التي ظهرت بعد مجيء الإسلام فهي: رحلة الحج ، رحلة طلب العلم، رحلة التجوال والطواف (الشامي، ص.1999: 114).

هـ- دوافع تدوين الرحلة:

هنالك عدة أسباب تدفع الرحالة إلى سرد أحداث رحلته ومن بين هذه الأسباب:

-التعريف بالبلدان التي زارها ، و تحديد الطرق و المسالك و تبيين مواقع الخطر و المشقة .

-سرد أخبار الأمم و الأقوام – ماضيها و حاضرها – ،من عادات و تقاليد و طقوس.

-التأريخ للأحداث المتنوعة ، وتقديم معلومات سياسية و اقتصادية عن البلدان التي زارها.

-تقديم معلومات للقارئ عن المعارف والعلوم والتعريف بالأعلام ومؤلفاتهم.

-تلبية رغبة الآخرين من حكام أو أصدقاء أو أقرباء بتدوين الرحلة. (انساعد،س. 2009: 34-35) .

و- أهمية كتب الرحلة في تدوين التاريخ المحلي:

كانت الرحلة أحد أسرار وحدة البشر في عصر خلى من وسائل الاتصال الحديثة ، ولعلّ أبرز دور قامت به الرحلة هو تقديمها خدمة كبيرة لعلم الجغرافيا ، فقد كان الرحالة في وصفه للمسالك و الممالك معينا للجغرافيا لأنها تتصل بالظواهر الطبيعية والجغرافية اتصالا مباشرا ، وهو هنا أيضا ذا نفع للمؤرخ و السياسي و الاقتصادي وغيرهم. (قنديل، ف.2002: 23).

فالرحالة خلال رحلته يتعرض إلى جميع نواحي الحياة ، فالمادة التي يدونها تفيد المؤرخ و الجغرافي وعلماء الاقتصاد ومؤرخي الآداب .... ، فالرحلات عبارة عن منابع ثرية لمختلف العلوم ، وهي بمجموعها سجل لمختلف مظاهر الحياة و مفاهيم أهلها على مر العصور ، فالرحالة يغطي مظاهر مختلفة في الحياة إما يشاهدها أو يسمعها أحيانا من غيره ، و لا شك أن الرحالين يختلفون في دقة ملاحظاتهم كما يختلفون أيضا في درجة صدقهم و أمانتهم(حسني ، ح.1983: 06-07) .

ومع تطور المعرفة الجغرافية العربية ، عرفت الجغرافيا العربية ازدهارا من بداية القرن الرابع هجري حتى القرن السادس هجري ، حيث لم يكن غالبية كتابها سوى رحالة علميين ، ومن عوامل ازدهار هذا النوع من الكتابة الجغرافية هو اتساع رقعة الدولة الإسلامية و ما تطلبه من معلومات جديدة عن تلك البلدان النائية و شعوبها ، فلا بد على الحكام المسلمين أن يتعرفوا على طبائع السكان و تقاليدهم وعلى إنتاج البلاد الزراعي والصناعي و ثرواتها لتقدير خراجها ، كما لابد لهم من التعرف على أسماء المدن و الطرق المؤدية لها، واستفاد المؤلفون الأوائل كابن خرداذبة [4] من وظائفهم الإدارية في جمع المعلومات عن البلدان النائية ، أما المؤلفون الآخرون فقد استفادوا من إمكانات السفر الجديدة التي تتمثل باتساع شبكة الطرق و المواصلات و توفر الأمن فيها (خصباك،ش .1986: 11).

فكان الرحالة المسلمين بمثابة المرشدين في حركة التوسع الاقتصادي والتبادل التجاري بين الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف والكتل الاقتصادية الأخرى. (ابن سعيد ، م.1982: 29) .

ومن خلال الرحالة العرب و المسلمين تم اكتشاف العديد من المناطق الجديدة في العالم لم تكن معروفة من قبل أو كانت المعرفة بها قليلة ، فكانت لهم مؤلفات جغرافية تميزت إلى حد كبير بالدقة و الأمانة العلمية و يمكن الإشارة إلى بعض من هذه المؤلفات : كتاب البلدان لليعقوبي ، صورة الأرض لابن حوقل ..الخ ، فالكتب الجغرافية بنوعيها : العلمية الخاصة بتقويم البلدان والأطوال والعروض، أو الوصفية الخاصة بالبلدان والمسالك كانت لها صلة وثيقة بالتاريخ رغم استقلالها عنه ، فكتب الجغرافية تحتوي على معلومات تاريخية هامة إلى جانب المعلومات الجغرافية و الأدبية و غيرها ، وهي أيضا تكمل كتب التاريخ باهتمامها بالأحداث السياسية و كذا وصف الأحوال الطبيعية و البيئية و إمدادنا بمعلومات طبيعية متنوعة.(زغلول ، س.2000: 51/01).

فالتاريخ والجغرافيا إذا لا يمثلان شيئين مختلفين و متقابلين كما يقول البعض من الذين يحاولون التمييز بينهما بوجه عام على أنهما يمثلان دراسة الإنسان و الأرض ، فيمكن التأكيد على أن الهدف من دراسة الجغرافيا هو دراسة البلاد بكل نواحيها المتعددة ، ولكن دراسة البلاد تتضمن بدون شك دراسة الإنسان و هو عامل مهم في تطورها.(جوردن،إ.1982: 13)، ومن أروع الأمثلة التي تحفظها كتب الرحلة و الجغرافيا و قلما نجد ذكرها في كتب التاريخ ، ما روى ابن حوقل عن مشاهدته للتعامل بالصك في المجال التجاري ، حيث يقول : " ... ولقد رأيت بأودغست صكا فيه ذكر حق لبعض على رجل من تجار أودغست و هو من أهل سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار، وما رأيت ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبها ولا نظيرا ... " (ابن حوقل، م.1992: 96)، من هاته الرواية يمكننا القول أن سكان بلاد المغرب تعاملوا بالصك في مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية قبل الأمم الإسلامية بالمشرق.

إن من أهداف دراسة التاريخ هي أخذ العبرة من الماضي والتخطيط لمستقبل أفضل، فمن خلال استقراء كتب الرحلة والجغرافيا نرى بأنها حفلت بأوصاف شتى لغنى بلاد المغرب ومدنها بتربة خصبة منتجة لمختلف المحاصيل الزراعية ذات الجودة الكبيرة ومصادر مياه متنوعة ، فيذكر مثلا الحميري أن "أهل بادس كانوا يزدرعون الشعير مرتين في العام ... " (الحميري ،م.1984: 85)، وأن مدينة طبنة كانت تزرع مختلف المحاصيل من قطن إلى كتان إلى مختلف الحبوب والتمر وغيرها ، وكانت المنتجات الفلاحية بمختلف أنواعها تزود سكان البلدان المجاورة ومنها ما حمل عبر البحر من خيرات مدن بلاد المغرب من إجاص وجوز وشمع واسفرجل ومستخرجات طبيعية إلى القيروان وإلى سجلماسة و فاس ومنها إلى أوربا عبر الأندس و بحرا إلى المدن الإيطالية عبر ميناء بجاية.

ي- أشهر الرحلات إلى المغرب الإسلامي :

1-اليعقوبي (ت 284 هـ / 897 م) :

هو أحمد أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب الأصبهاني الإخباري الشهير باليعقوبي وبابن واضح، وكان يقال له: مولى بني العباس ومولى بني هاشم لأن جده كان من موالي المنصور الدوانيقي الخليفة العباسي.(اليعقوبي، أ. 2003: 05). وكان بحاثة في التاريخ و أخبار البلدان ، و لقد أعطى التنقيب حقه في سياحته في البلاد شرقا و غربا و دخل بلاد فارس وأطال المقام في بلاد أرمينية و كان فيها سنة 260 هـ / 876 م ، و دخل الهند أيضا و الأقطار العربية فالشام فالمغرب فالأندلس، وراح يبحث عن الأمصار وأهلها وعن عاداتهم ونحلهم وحكوماتهم وعن المسافات بين البلدان فإذا وثق بنقلهم أثبته في كتابه. ويقول عن نفسه: " إني عُنيت في عنفوان شبابي و عند احتيال سني وجِدّة ذهني بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد و بلد، لأني سافرت حديث السن و اتصلت أسفاري و دام تغربي " .(اليعقوبي ، أ. 2003: 09) ، أما مصنفه "البلدان" الذي أنجزه بمصر تحت رعاية الطولونيين في خلافة المعتمد العباسي (ت 277 هـ/890 م) يعتبر أقدم كتاب وصل إلى الباحثين .

وفيما يخص المغرب وما شغله من حيز في كتابه البلدان ، فهو يمثل أهمية بالغة و ذلك من منطلق أنه زار بلاد المغرب وسجل مشاهداته ونقل عن أهله ، وقد قدم لنا معلومات دقيقة عن طبيعة المغرب و عمرانه و سكانه و منتجاته و أسواقه وحدد المسافات بين البلدان، (رحماني ،م.2006-2007: هـ) و ذكر مدن بلاد المغرب بالتفصيل و أعطى صورة دقيقة عن مجال إقليم الزاب بالتفصيل ومدنها مثل : طبنة ، باغاية ، جبل الأوراس ، ميلة ، سطيف ، نقاوس وغيرها....

أما عن أهمية الكتاب فهي راجعة لكون اليعقوبي جمع فيه ماعرفه بنفسه من أحوال البلدان في عصره ، و كتابه من أمهات الكتب أي أنه غير منقول من كتاب آخر. (زيدان،ج . 1983: 01/511-512) .

2-ابن حوقل (ت 367 هـ / 977 م) :

هو أبو القاسم محمد بن علي الموصلي المشهور بابن حوقل ، ولد ببغداد ونشأ بها و كانت أوضاع الدولة العباسية في مصر بلغت حد اكبيرا من التدهور ، وكان ابن حوقل من ضحايا التغيير والاضطراب ففقد الثروة التي ورثها عن أبيه وجده ، ولكونه في ريعان شبابه فقد مارس التجارة في عرض البلاد لتعويض ثروته الضائعة. (العربي ، إ.1994: 302). وجاب هذا الرحالة التاجر مختلف الأمصار في القرن الرابع هجري ، وظهر اهتمامه بالجغرافيا مبكرا فألف كتابه " صورة الأرض " حيث يقول عن دواعي تأليفه له: " وكان مما حضيني على تأليفه و حثّني على تصنيفه و جذبني إلى رسمه إلى كيفية البين بين الممالك في السير و الحقائق ، وتباينهم في المذاهب والطرائق .... ، فلم أقرأ في المسالك كتابا مقنعا و ما رأيت فيه رسما متبعا فدعاني ذلك إلى تأليف هذا الكتاب، واستنطاقي فيه وجوها من القول والخطاب ... " (ابن حوقل ، م.1992: 10)

وتحرى ابن حوقل لمؤلفه اليقين من المعلومات من المصادر التي جمع منها ، حيث قال : " ... وكنت إذا لقيت الرجل الذي أظنه صادقا و أخاله بما أسأله عنه خبيرا عالما فأجد ذلك باطلا ، و رأى الحاكي بأكثر ما حكاه جاهلا ثم أعاوده الخبر الذي ألتمسه منه و الذكر ليسمع الذي استوصفته و أطالع معه ما صدر مع غيره في ذلك بعد رؤية ، و أجمع بينهما و بين حكاية ثالث بالعدل والتسوية".(ابن حوقل ، م.1992: 07).

والكتاب يمثل وثيقة هامة خصوصا فيما يتعلق ببلاد المغرب و الأندلس الذي أقام بها وتجول في مختلف مناطقها ، فهو إذن من الجغرافيين الذين زاروا بلاد المغرب وسجل ملاحظاته و مشاهداته بها،(رحماني ،م.2006-2007: ط) و تتمثل أهمية الكتاب في غناه بالتفاصيل الجغرافية و الاقتصادية ، فقد وصف طرق التجارة و السلع و البضائع و ذكر أصول السكان و الصراعات القائمة بينهم ،كما وصف الحواضر و المدن و ما تحويها من منشآت و مؤسسات لذلك يعد كتاب صورة الأرض من المصادر التي لا غنى للباحث عنها ، هذا بالرغم باتهامه بالولاء للدولة العبيدية الفاطمية ، و هذا الأمر يظهر جليا في حديثه عن حركة صاحب الحمار الذي اتهمه بالكفر والنفاق ، في حين يسمي الخليفة الفاطمي المنصور بمولانا أمير المؤمنين .

3-المقدسي (ت 338 هـ / 998 م) :

هو شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المقدسي البشاري ، و قد اشتهر بالمقدسي نسبة إلى مسقط رأسه بالقدس و يعرف بالبناء لأن والده كان من أمهر المهندسين والبنائين حيث بنى ميناء عكّا في عهد أحمد بن طولون. (فلاح ، أ.1988: 07) . و ذكر المقدسي في كتابه أنه سمي بستة و ثلاثين اسما و هي : مقدسي ، فلسطيني ، مصري ، مغربي ، خرساني ، سلمى ، مقرئ ، صوفي ، ولي ، عابد ، زاهد ، سياح ، وراق ، مجلد ، تاجر ، مذكر ، إمام ، مؤذن ، خطيب ، عراقي ، بغدادي ، شامي ، حنفي ، متأدب ، كرى ، متفقه ، فرائضي ، أستاذ ، دانشومند ، شيخ ، نشاسة ، راكب ، رسول ، وذلك لاختلاف البلدان التي حل بها وكثرة المواضع التي دخلها. .(فلاح ، أ.1988: 07)

مارس المقدسي مهنة التجارة مما سمح له بالتجول في مختلف الولايات الإسلامية ما عدا الأندلس وبلاد السند و لربما زار صقلية أيضا ، حيث اعتبر وصفه لهذه الجزيرة جاء نقلا عن ماتناولته النصوص التي نقلها عن الجغرافيين و المؤرخين العرب .

و أما عن مؤلفه " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " فيبدو أنه بدأ بتدوينه عام 375 هـ / 985 م ، وأنجزه في مدة ثلاثة أعوام، أما عن دواعي تأليفه له فيقول عن ذلك : " مازالت العلماء ترغب في تصنيف الكتب لئلا تدرس آثارهم ولا تنقطع أخبارهم ، فأحببت أن أتبع سننهم و أقيم علما أحيي به ذكرى ونفع الخلق أرضي به ربي " . (المقدسي،ش.1991: 02).

وعن أهمية كتابه وخاصة في جزئه الخاص ببلاد المغرب ، نجد أنه وصف بلاد المغرب بقوله: " هذا إقليم بهي كبير سري كثير المدن و القرى عجيب الخصائص و الرخا ، به ثغور جليلة و حصون كثيرة و رياض نزهة و به جزائر عدة " (المقدسي،ش.1991 : 315)، أما عن بلاد الزاب فذكر عاصمة الإقليم آنذاك وعدد مدنها بقوله : " و الزاب مدينتها المسيلة ولها مقرة ، طبنة ، بسكرة ، بادس، تهوذا، طولقا ، جميلا" (المقدسي،ش.1991: 321).

وكانت فائدة الكتاب في أنه زار بلاد المغرب و طاف بها ، ولم يتوقف عند وصف مدنها وحالتها الاقتصادية، بل تحدث أيضا عن عادات البربر و معتقداتهم ، أما الناحية الاقتصادية فيذكر أهم الميزات التي يشتهر بها إقليم المغرب كالزيتون والعنب والتين كما أشار إلى الفواكه الموجودة في الإقليم كالإجاص و التفاح والرمان ، فضلا على أنه إقليم الحبوب و خاصة القمح و مزارعه مع الأمطار، و أشار إلى كثرة النخيل بالمناطق الحارة وكذا وجود بعض ثمار المناطق الباردة والجبلية مثل الجوز و غيره من المنتوجات الزراعية، دون إهمال ذكر الثروة الحيوانية وكذا المعادن والتجارة.

4-الإدريسي (493 – 560 هـ / 1100 – 1166 م):

هو أبو عبد الله محمد بن محمد الحمودي بن عبد الله الشهير بالإدريسي ، ولد في مدينة سبتة بالمغرب الأقصى وتنتسب أسرته إلى الشرفاء الأدارسة العلويين، ولذلك اشتهر بلقب الشريف الإدريسي ، انتقل وهو صغير السن إلى قرطبة وتعلم في جامعتها ودرس هنالك العلوم والرياضيات واهتم بدراسة التاريخ والجغرافيا .

بدأ الإدريسي أسفاره في سن مبكرة فاستطاع أن يزور مناطق عديدة ، فمن خلال كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق نجد أنه زار لشبونة و سواحل فرنسا و بعض مدنها الهامة بل وأوغل حتى الجزر البريطانية بعد أن سبق له زيارة آسيا الصغرى وهو لم يتجاوز السادسة عشر من عمره وذلك عام 510 هـ / 1117 م. (زيادة،ن.1987: 106) . ثم في سنة 533 هـ/1140 قصد صقلية بناء على دعوة الملك النورماندي "روجار الثاني" [5] و استقر ببالرمو عاصمة صقلية ، إلى أن دافع ذهابه إليها ليس بغرض السياحة أو من دون داع ، فقد أصبح أبناء عمومته من بني حمود مجردين من كل سلطة فتحتم على عدد منهم الهجرة ، فهاجر بعضهم إلى العدوة في شمال المغرب وهاجر آخرون إلى المشرق بينما هاجر آخرون إلى صقلية.

وكان الملك روجار الثاني مولعا بعلوم الفلك و الجغرافيا و وجد في علم الإدريسي واتساع أفقه الجغرافي مما جعله يتمسك به و طلب منه تصنيف كتابه في صفة الأرض من واقع مشاهداته ، فعكف على تصنيفه حتى أتمه سنة 548 هـ / 1155 م، و أضاف إليه قسم أسماه " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " ، وعرف أيضا باسم " الكتاب الروجري " .(سالم،ع.1981: 113/02) .

و تكمن أهمية الكتاب في شقه الخاص ببلاد المغرب والأندلس حيث أن معظم معلوماته شخصية استقاها من مشاهداته في رحلاته و أسفاره و من مصادر أخرى ، فأهم الأوصاف وأدقها في كتابه هي الخاصة بالمغرب الإسلامي وصقلية و جنوب إيطاليا لأنها غالبا مبنية على المشاهدة و الملاحظة الشخصية للمؤلف ، فقد خص المغرب في كتابه ضمن الإقليم الثالث في جزئه الأول و الثاني ، كما قام بوصف المدن وعمارتها و الطرق التجارية و السلع والأسواق كما ذكر مواطن البربر و قبائلهم و تحدث عن المياه ومصادرها وأنواع المزروعات و ذكر بعض أنشطة السكان وحرفهم.

القرن	أهم رحاليه	مؤلفه
3هـ-9م	اليعقوبي	– كتاب البلدان .
	ابن خرداذبة	– المسالك و الممالك .
4هـ-10م	المهلبي	– المسالك و الممالك .
	الاصطخري	– المسالك و الممالك .
	المسعودي	– مروج الذهب و معادن الجوهر .
	ابن حوقل	– صورة الأرض .
	المقدسي	– أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم .
5هـ-11م	البيروني	– تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة
	البكري	– المسالك و الممالك .
6هـ-12 م	الإدريسي	– نزهة المشتاق في اختراق الآفاق .
	أبو حامد الغرناطي	– تحفة الألباب و نخبة الأعجاب . – المعرب من عجائب المغرب .
	ابن جبير	– تذكرة الأخبار واتفاقات الأسفار .
	مجهول	– الاستبصار في عجائب الأمصار .
7هـ-13 م	البغدادي	– الإفادة و الاعتبار في الأمور المشاهدة و الحوادث المعاينة بأرض مصر .
	ياقوت الحموي	– معجم البلدان .
	ابن سعيد المغربي	– الجغرافيا .
8هـ-14م	أبو الفداء	– تقويم البلدان .
	ابن بطوطة	– تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار .
	ابن خلدون	– التعريف بابن خلدون و رحلته غربا و شرقا .
	ابن الحاج النميري	– فيض العباب .
9هـ-15م	الحسن الوزان – ليون الإفريقي –	– وصف إفريقيا .

البيبليوغرافيا المعتمدة:

[1]-ابن جبير : هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الشاطبي البلنسي ، ولد عام 540 هـ وتوفي سنة 614 هـ ، عمل كاتبا لدى حاكم غرناطة الموحدي ، قام برحلته الأولى إلى الحجاز سنة 580 هـ ، ثم قام برحلته الثانية إلى بيت المقدس سنة 585 هـ ، ثم قام برحلته الثالثة سنة 610 هـ ، أنظر ، (حسني ،ح. 1983: 52) .

[2]-ابن بطوطة : هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي ولد سنة 703 هـ ، شغل منصب القضاء في الشرق الأقصى قام بثلاث رحلات دامت 28 سنة ، أنظر ، (حسني ،ح. 1983: 35-36) .

[3]-العبدري :هو محمد بن محمد العبدري الذي يرتفع نسبه إلى بني عبد الدار من بني قصي بن كلاب من أجداد الرسول (ص) قام برحلته انطلاقا من الصويرة سنة 688 هـ ، وبدأ رحلته عبر شمال إفريقيا بغرض الحج، أنظر ، (نقولا،ز. 1987: 171) .

[4]-ابن خرداذبة : هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المشهور بابن خرداذبة ، ينتسب إلى أسرة فارسية اعتنقت الإسلام و كان جده مجوسيا ، أما والده فكان حاكما على طبرستان ، شغل منصب مدير البريد و الخبر بنواحي الجبال بفارس ثم شغل رئيس هذه المصلحة ببغداد ، له كتاب أسماه المسالك و الممالك و الذي بدأ بتأليفه عام 232 هـ و تابع عمله عليه حتى وفاته سنة 272 هـ ، أنظر ، (نقولا،ز.1987: 106)،

[5]-روجار الثاني (483-549 هـ / 1090 –1055 م) : توفي والده و عمره عشر سنوات فأصبح قسما لصقلية و قلورية تحت وصاية أمه أولايد ، و في عام 1127 م صار دوقا لناحية بوي ، ثم في سنة 1130 م أصبح ملكا لصقلية ، ثم في سنة 1140 م أصبح دوقا لنابولي ، عرفت صقلية في عهده تطورا في العمران و كذا الإقتصاد و الثقافة كما ترك للمسلمين حريتهم الدينية ، أنظر ، (الإدريسي،أ. 1989: 53/01).

قائمة المصادر و المراجع :

أ/ المصادر :

-ابن العربي محمد المعافري (1990)، قانون التأويل ، ط02، تح: محمد السليماني ، دار الغرب الإسلامي، لبنان .

-ابن حوقل النصيبي(1992)، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة للطباعة و النشر ، لبنان .

-ابن خلدون عبد الرحمن (2000)، المقدمة ، ج01 ، ط02 ،تح : درويش جويدي ، المكتبة العصرية ، ، بيروت .

-ابن سعيد المغربي (1982)، كتاب الجغرافيا ، ط،02، تح: إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر .

-ابن منظور جمال الدين.(د ت)، لسان العرب ، مجلد 3 ج18، تح: عبد الله علي الكبير و آخرون ، دار المعارف، مصر.

-الإدريسي أبو عبد الله محمد ،(1989) ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مج 01 ، ط01، عالم الكتب ، لبنان .

-الحميري محمد بن عبد المنعم (1984)، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط02 ، تح : إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت .

-الغزالي أبو حامد .(1986)، إحياء علوم الدين ، ج02 ، ط01، دار الكتب العلمية ، بيروت .

-المسعودي أبي الحسن (1989)، مروج الذهب و معادن الجوهر ، ج 01 ، تح: محمد السويدي ، موفم للطباعة و النشر ، الجزائر .

-المقدسي شمس الدين (1991) ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط03 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة .

-اليعقوبي أحمد **أبو العباس** (**2003**) ،البلدان ، وضع حواشيه : محمد أمين ضناوي ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

ب/ المراجع :

-أسود فلاح شاكر(1988)، المقدسي ،ط01، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد .

-انساعد سميرة (2009)، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري ، دراسة في النشأة و التطور و البنية ، دار الهدى للنشر ، عين مليلة .

-ايست جوردن (1982)، الجغرافيا توجه التاريخ ،ط02، ترجمة : جمال الدين الدناصوري ، مراجعة : دولت صادق ، دار الحداثة ،لبنان .

- البستاني بطرس.(1884)، دائرة المعارف –قاموس لكل فن ومطلب - ، مجلد 08 ، مطبعة المعارف ، بيروت .

-حسين حسني محمود (1983)، أدب الرحلة عند العرب، ط01 ، دار الأندلس ، لبنان .

-حمدين محمد محمود (1999) ، التراث الجغرافي الإسلامي ، ط03، دار العلوم للطباعة و النشر ،السعودية .

-خصباك شاكر (1986)، الجغرافيا عند العرب ،ط01، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت .

-الزيات حسن و آخرون .(2004)، المعجم الوسيط ، ط04 ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة .

-زيادة نقولا (1987)، الجغرافيا و الرحلات عند العرب ، الشركة العالمية للكتاب ، لبنان .

-زيدان جرجي (1983) ، تاريخ آداب اللغة العربية ، مجلد 01 ، منشورات دار مكتبة الحياة ، لبنان .

-زيدان جرجي (2012) ، تاريخ التمدن الإسلامي ، ج 03 ، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة ، القاهرة .

-سالم عبد العزيز(1981)، تاريخ المغرب الكبير – العصر الإسلامي دراسة تاريخية و عمرانية و أثرية– ج02 ، ط01 ، دار النهضة العربية ، لبنان .

-سعد زغلول عبد الحميد (2000)، تاريخ المغرب العربي – من الفتح إلى بداية عصر الإستقلال (ليبيا ، تونس ، الجزائر، المغرب) ج01 ، منشأة المعارف ، مصر.

-الشامي صلاح الدين علي. (1999)، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي و الدراسة الميدانية ، منشأة المعارف ، الإسكندرية – مصر .

-الشوابكة نوال عبد الرحمن (2008) ، أدب الرحلة الأندلسية و المغربية حتى نهاية القرن التاسع هجري ، ط 01، دار المأمون للطباعة و النشر و التوزيع ، عمان.

-الصقار فؤاد محمد و القل محمد رشيد (1984) ، أصول الجغرافيا البشرية ، ط 02 ، وكالة المطبوعات ، الكويت .

-ضيف شوقي (1987)، الرحلات ، ط04 ،دار المعارف ، القاهرة .

-العربي إسماعيل (1994)، دور المسلمين في تقدم الجغرافيا الوصفية و الفلكية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر.

-فهيم حسين محمد (1989)، أدب الرحلات ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت.

-قنديل فؤاد (2002)، أدب الرحلة في التراث العربي،ط02،الدار العربية للكتاب ، مصر .

-الموافي ناصر عبد الرزاق. (1995) ، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع هجري ،ط01، مكتبة الوفاء للطباعة و النشر ، القاهرة.

-موسى رحماني (2006-2007) الأوراس في العصر الوسيط من الفتح الإسلامي إلى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر (27-362 هـ/637-972م) دراسة اجتماعية ، رسالة الماجستير مخطوطة غير منشورة لنيل شهادة الماجستير تخصص تاريخ المجتمع المغاربي، جامعة منتوري ، قسنطينة ، الجزائر.

-نصار حسين (1991)، أدب الرحلة ،ط01، دار نوبار للطباعة + الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة .

-نواب عواطف محمد يوسف .(1996)، الرحلات المغربية و الأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع و الثامن الهجريين دراسة تحليلية مقارنة ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض.